في حدائق العرب

اجبنُ الناس واحيلُ الناس واشجع الناس

دخل عمرو بن معدي كرب الزبيدي على عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال عمر : « اخبرني من اجبنُ من لقيت واحيل من لقيت واشجعُ من لقيت »

قال : « يا امير المؤمنين خرجتُ مرةً أريد الغارةَ ، فبينما انا سائرٌ ، اذا بفرسٍ مشدود ورمح مركوزٍ ، واذا رجلٌ جالسٌ كاعظم ما يكونُ الرجال خلقاً ، وهو محتبٍ بحمائل سيفهِ . فقلت « : خُذْ حذرَك فاني قاتلك — فقال : ومن انت ؟ — قلتُ : انا عمرو بن معدي كرب الزبيدي .. ! » فشهق شهقةً فمات

فهذا يا اميرَ المؤمنين اجبنُ من رأيت

وخرجتُ مرةً حتى انتهيتُ الى حيٍّ ، فاذا انا بفرسٍ مشدود ورمح مركوز ، واذا صاحبه في وهدةٍ يقضي له حاجةً . فقلتُ : « خُذْ حذرك ، فاني قاتلك ـ فقال : ومن انت ؟ » فاعلمته بي . فقال : « يا ابا ثور ، ما انصفتني ، انت على ظهر فرسك وانا على الارض ، فاعطني عهداً انك لا تقتلني حتى اركب فرسي » فاعطيتُه عهداً . فخرج من الموضع الذي كان فيه ، واحتبى بحمائل سيفهِ ، وجلس . فقلت : « ما هذا ؟ ـ فقال : ما انا براكب فرسي ، ولا بقاتلك ، فان نكثتَ عهدكَ ، فانت اعلمُ بنا كث العهد » فتركتهُ ومضيت

فهذا يا اميرَ المؤمنين احيلُ من رأيت ...

وخرجتُ مرة حتى انتهيت الى موضع كنتُ اقطعُ فيه الطريق . فلم ارَ احداً ، فاجريت فرسي يميناً وشمالاً ، واذا انا بفارسٍ فلما دنا مني فاذا هو غلامٌ حسن ، نبت عذاره ، من اجمل ما رأيتُ من الفتيان واحسنهم . واذا هو قد اقبل من نحو اليمامة . فلما قرب مني سلّم عليّ ، فرددتُ عليه السلام وقلتُ : « مَن الفتى ؟ — قال : الحارث بن سعد فارس الشهباء ـ فقلت : خذ حذرك فاني قاتلك ـ فقال : الويل لك ، فمن انت ؟ ـ قلت : عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ قال : الذليل الحقير ، واللهِ ما يمنعني من قتلك إلاّ استصغارك »

فتصاغرت نفسي يا اميرَ المؤمنين ، وعظم عندي ما استقبلني به . فقلت : « دعْ هذا ، وخذ حذرك ، واللهِ لا ينصرف إلاّ احدُنا . ـ فقال: ثكلتك امك ، فانا من اهلِ ما اثكلنا فارسٌ قط ـ قلتُ : هو الذي تسمعه ـ قال : اخترْ لنفسك ، فإمّا ان تطردَ لي ، وإمّا ان اطردَ لك » فاغتنمتها منه وقلت : « اطردْ لي » فاطرد وحملتُ عليه ، فظننت اني وضعتُ الرمحَ بين كتفيه ، فاذا هو صارَ حزاماً لفرسهِ ، ثمّ عطف عليّ ، فقمت بالقناة راسي وقال : « يا عمرو خذها اليك واحدةً ، ولولا اني اكرهُ قتلَ مثلك لقتلتك »

فتصاغرتْ نفسي عندي ، وكان الموتُ يا اميرَ المؤمنين احبّ اليّ مما رأيت . فقلت : « واللهِ لا ينصرف إلاّ احدُنا » فعرض عليّ مقالته الاولى ، فقلت له : « اطرد لي » فاطرد ، فظننت اني تمكنتُ منه فاتبعته

حتى ظننتُ اني وضعت الرمحَ بين كتفيه . فاذا هو صار لبباً لفرسه ، ثمّ عطف عليّ فقنع بالقناة راسي وقال : « خذها اليك يا عمرو ثانيةً » فتصاغرت اليّ نفسي وقلت : « والله لا ينصرف إلاّ احدنا فاطردْ لي » فاطرد حتى ظننتُ اني وضعت الرمح بين كتفيه ، فوثب عن فرسهِ فاذا هو على الارضِ فاخطأته . ثمّ استوى على فرسه واتبعني حتى قنع بالقناة راسي ، وقال : « خذها اليك يا عمرو ثالثة ، ولولا كراهتي لقتلِ مثلك لقتلتك — فقلت : اقتلني احبُّ اليّ . ولا تسمع فرسان العرب بهذا — فقال : يا عمرو انما العفو عن ثلاث . واذا تمكنتُ منك في الرابعة قتلتك » وانشد يقول :

وكدتُ اغلاظاً من الايمان ان عدتَ يا عمرو الى الطعان
لتجدنّ لهبَ السنانَ او لا فلستُ من بني شيبانَ

فهبته هيبةً شديدة وقلت له : « ان لي اليك حاجةً — قال : وماهي؟ — قلتُ : اكون صاحباً لك — قال : لستَ من اصحابي . ويحك أتدري اين أريد ؟ — قلت : لا والله — قال : أُريد الموتَ الاحمر عياناً — قلت : أريد الموت معك — قال : امضِ بنا »

فسرنا يوماً اجمع حتى اتانا الليلُ ومضى شطره فوردنا على حيّ من احياء العرب فقال لي : « يا عمرو في هذا الحيّ الموت الاحمر فإما ان تمسك عليّ فرسي فانزل وآتي بحاجاتي ، واما ان تنزل وامسك فرسك فتأتيني بحاجتي . — فقلت : بل انزلْ انت ، فانت اخبرُ بحاجتك مني » فرمى اليّ بعنان فرسه ، ورضيت والله يا امير المؤمنين بان اكون له سهايساً.

ثمّ مضى الى قبةٍ فأخرجَ منها جاريةً لم ترَ عيناي احسنَ منها حسناً وجمالاً ، فحملها على ناقةً ثمّ قال : « يا عمرو إما ان تحميني واقود الناقة ، او احميك وتقودها انت ـ قلتُ : لا بل اقودها وتحميني انت » فرمى اليّ بزمام الناقة ، ثمّ سرنا حتى اصبحنا . قال: « يا عمرو ـ قلت : ما تشاء ؟ ـ قال التفتْ فانظر ، هل ترى احداً ، فالتفتُ فرأيتُ جمالاً فقلت : «اغذذ السير . قال : انظرْ ، ان كانوا قليلاً فالجلد والقوة وهو الموت الاحمر ، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيءٍ قلت : هم اربعةٌ اوخمسة ـ قال : اغذذ السير » ففعلت ووقف وسمع وقع حوافر الخيل عن قرب فقال : « يا عمرو كنْ عن يمين الطريق ، وقفْ ، وحوّل وجهَ دوابنا الى الطريق » ففعلت ووقفت عن يمين الراحلة ووقف عن يسارها ودنا القوم منا ، واذا هم ثلاثة نفرٍ شابان وشيخ كبير ، وهو ابو الجارية والشابان اخواها . فسلموا فرددنا السلام فقال الشيخ : « خلِّ عن الجارية يا ابنَ اخي ـ فقال : ما كنتُ لأُخليها ولا لهذا اخذتها ـ فقال لاحد بنيه : اخرج اليه ، فخرج وهو يجرُّ رمحه فحمل عليه الحارث وهو يقول :

من دون ما ترجوه خضبُ الزايلِ من فارسٍ ملثم مقاتلِ
يمي الى شيبان خير وائلِ ما كان يسري نحوها بباطل

ثمّ شدّ على ابن الشيخ بطعنةٍ قدّ بها صلبه فسقط ميتاً فقال الشيخ لابنه الآخر : « اخرج اليه فلا خير في الحياةِ على الذل » فاقبل الحارث وهو يقول :

لقد رأيت كيف كانت طعنتي والطعنُ للقرم الشديد الهمةِ

والموتُ خيرٌ من فراق خلتي فقتلتي اليومَ ولا مذلتي

ثمّ شدّ على ابن الشيخ بطعنة سقط منها ميتاً . فقال له الشيخ : « خلِّ عن الظعينةِ يا ابن اخي فانيلستُ كمن رأيت ـ فقال : ما كنتُ لاخليها ولا لهذا قصدت ـ فقال الشيخ : يا ابنَ اخي اخترْ لنفسك ، فان شئت نازلتُك ، وان شئتَ طاردتك » فاغتنمها الفتى ونزل ، فنزل الشيخ وهو يقول :

ما ارتجي عند فناء عمري سأجعل التسعين مثل شهر
تخافني الشجعان طول دهري ان استباح البيض قصم الظهر

فاقبل الحارث وهو ينشد :

بعد ارتحالي وطال سفري وقدظفرتُ وشفيت صدري
فالموت خيرٌ من لباس الغدرِ والعار اهديه لحيّ بكرِ

ثم دنا فقال له الشيخ : « يا ابن اخي ان شئتَ ضربتك فان ابقيتُ فيك بقيةً فاضربني . وان شئت فاضربني فان ابقيتَ فيّ بقيةً ضربتك » فاغتنمها الفتى وقال : «انا ابدأ — فقال الشيخ : هات» فرفع الحارث يده بالسيف فلما نظر الشيخ انه قد اهوى به الى رأسه ضرب له بطنه بطعنة قدّ منها امعاءه ووقعت ضربة الفتى على رأس عمه ، فسقطا ميتين . . . . فاخذت ياامير المؤمنين اربعة اسيافٍ واربعة افراسٍ . ثم اقبلتُ الى الناقة فقالت الجارية : ياعمرو الى اين ولست بصاحبتك ولست لي بصاحب، ولست كمن رأيت . فقلت : اسكتي ـ قالت . ان كنت لي صاحباً فاعطني سيفاً اورمحاً فان غلبتني فانا لك وان غلبتك قتلتك ـ فقلت : ما انا بمعطٍ

ذلك وقد عرفت اهلك وجرأة قومك وشجاعتهم » فرمت نفسها عن البعير. ثم اقبلت تقول :

أبعد شيخي ثم بعد اخوتي يطيب عيشي بعدهم ولذتي

واصحبن من لم يكن ذا همة هلاّ تكون قبل ذا منيتي

ثم اهوت الى الرمح وكادت تنزعه من يدي فلما رايت ذلك منها خفت ان ظفرت بي قتلتني ، فقتلتها

فهذا يا امير المؤمنين اشجع من رأيت

الونليرى

سليمان البستانى